إلى الدنيا أوَى حزبُ الأجاني ... وحسبوها جَــنًى حُلْوَ المَجاني
نسوا مِن جهـــلهم يوم المعادِ ... وتركوا الدين مِن حُبّ الدِّنانِ
تراهـــم مائلـــين إلى مُــدامٍ ... وغِــيدٍ والغـــواني والأغـــاني
وكمْ منــــهم أسارى عَينِ عِينٍ ... ومشــغوفين بالبيــض الحِسانِ
لهنَّ عـــلى بعـــولتهن حُــكمٌ ... ترى كُلاًّ كمنـــطلق العِـــنانِ
دماءِ العاشقـــين لهـــنَّ شغــلٌ ... بعينٍ أخجلتْ ظَبْـــيَ القِـــنانِ
ومِن عَجَبٍ جُفُـــونٌ فاتراتٌ ... أرينَ الخَـــلْق أفعـــالَ السنانِ
بنـــاظرةٍ تصـــيد النـــاسَ لمحًا ... تفـــوق بلحظها رُمْحَ الطِّعانِ
وأنَّى الأمـــن من تلك البلايا ... سوى الله الـــذي مَلِكِ الأمانِ
فعشّـــاق الغـــواني والمثـــاني ... أضاعوا الدين مِن تلك الأماني
يصُـــدّون الورى مِن كل خيرٍ ... ويغـــتاظون من تخلـــيصِ عاني
عِمـــايات الرجال تزيد منهم ... وفـــتن الدهر تنـــمو كل آنِ
وما من ملـــجأ من دون ربٍّ ... كريم قـــادر كهف الزمـــانِ
فنشكو هـــاربين من البـــلايا ... إلى الله الحفيـــظ المستعانِ
جرتْ حزنًا عيـــونٌ من عيوني ... بما شاهدتُ فتـــنًا كالـــدخانِ
فهل وجدتْ ثكالى مثلَ وجدي ... أذًى أم هل لها شأن كشـــاني
وكم مـــن ظالم يبغـــي فسادًا ... وقسيـــسين أصـــل الافـــتنانِ
تفاحُشـــهم تجـــاوزَ كل حدّ ... كأن غـــذاءهم فحشُ اللسانِ
فكنتُ أطالعَـــنَّ كتابَ سابٍّ ... وتمـــطُر مُقْلَـــتي مثل الرَّثانِ
رأينا فيه كلِـــمًا مُحفِـــظاتٍ ... وسبَّ المصطـــفى بحرَ الحنانِ

صبرتُ عليه حتى عِيلَ صبري ونار الغـيظ صارت في جَناني
وتـأتي ساعـةٌ إن شـاء ربي أُقِرُّ العـينَ بالخـصم المُـهانِ
أخـذْنا السبَّ منهم مثلَ دَينٍ وعـزّتُنا لـديهم كالـرِّهانِ
سنَغْـشاهم ببرهـان كعَضْبٍ رقيـقِ الشفـرتين أَخِ السنانِ
بفـأسٍ نختلي تلك الخَـلاتا ورمـحٍ ذابـلٍ وقَنا البـيانِ
بجمجمة العدا قد حلَّ غُولٌ فنُـخرجـه بآيـات المـثاني
لنـا دين ودنيـا للنصارى ومَقْتُ الضرّتـين من العِـيانِ
سئمنا كلَّ نوعِ الضيم منهم ولكن سَبَّـهم صلَّى جـناني
سعوا أن يجـعلوا أسدًا نعاجًا ولـيثُ الله لـيثٌ لا كضانِ
ووَثْبَـتُهم كسِرْحانٍ ضَـرِيٍّ وصورهم كـذي حُبٍّ مُقانِ
وباطنهم كجوف العَير قَفْرٌ من التقوى وبطنٌ كالجِـفانِ
أرى وَغْلاً جَهولاً وابنَ وَغْـلٍ يُري كالمرهَفات لَظَى اللسانِ
هريرُ الكلب لا يحـثو بنـبحٍ على البدر المطـهَّر مِن عُـثانِ
ألا يا أيها اللِّـحْزُ الشحـيحُ هوَيتَ كذي اللُّـبانة في الهوانِ
وما تدري الهدى وحملتَ جهلاً أناجيلَ النصارى كالأَتانِ
تُنَضْنِضُ مثلَ نضنضة الأفاعي وتهْـذي مثل عـادات الأداني
هـلمّ إلى كتـاب الله صدقًا وإيمـانًا بتصـديق الجـنانِ
شُغِـفتم أيها النوكَى بشوكٍ وأعرضـتم عن الزهر الحِسانِ
وآثرتم أمـاعِزَ ذاتَ صـخرٍ على مخضـرّةٍ قـاعٍ هِجـانِ
ومـا القـرآن إلا مثـلَ دُرَرٍ فرائـدَ زانَها حسـنُ البـيانِ

ومـــا مسّتْ أكفُّ الكاشحينا معـــارفَه التي مـــثل الحَـــصانِ
به ما شئتَ مِن عـــلم وعقـــل وأســـرار وأبـــكار المعـــاني
يسكِّت كلَّ مَن يعـــدو بضغنٍ يبكّت كلَّ كـــذّاب وجـــاني
رأيـــنا دَرَّ مُـــزْنتِـــه كثـــيرًا فـــدَينـــا ربَّنـــا ذا الامتـــنانِ
ومـــا أدراك ما القرآن فيضًا خفـــيرٌ جـــالبٌ نحو الجِـــنانِ
لـــه نورانِ نورٌ من علـــوم ونورٌ مـــن بيـــان كالجُـــمانِ
كلامٌ فائق ما راقَ طرفي جـــمـــالٌ بعـــده والنَّـــيِّرانِ
أَياةُ الشمس عند سَناه دَخْنٌ وما لِلَّعْـــلِ والسِبْت اليمـــاني
وأين يكون للقـــرآن مِثـــلٌ وليس لـــه بهذا الفـــضل ثاني
ورِثْنا الصُّحْفَ فاقتْ كلَّ كُتْبٍ وسبقتْ كلَّ أسفـــار بشانِ
وجاءت بعدما خـــرّتْ خيامٌ وخُـــرّبت البيوت مع المباني
محَتْ كلَّ الطرائق غيرَ برٍّ وجذّتْ رأسَ بدعات الزمـــانِ
كأنّ سيوفـــها كانت كـــنار بها حُرقتْ مَخـــاريق الأداني
إذا اســـتدعى كتابُ الله مثلاً فعَيَّ القومُ واستـــتروا كفانِ
وسُلبتْ جرأةُ الإسناف منهم مِن الهـــول الذي حلّ الجَنانِ
فمِن عجبٍ أكـــبّوا مثلَ مَيْتٍ وقد مرَنوا على لطف البيـــانِ
وأنـــزلَـــه مهيـــمنُنا حُـــدَيًّا ففـــرّوا كلـــهم كالمستـــهانِ
وصارت عُصْـــبُهم فِرقًا ثُبَينًا فمنـــهم من أتى بعد الحِرانِ
ومنهم من تلبّبَ مستشـــيطًا لحرب الصـــادقين وللطـــعانِ
فأنتم قد سمعـــتم ما أصيـــبوا بضعضعة السيوف من الهـــوانِ

وكان جزاء سَلِّ السيف سيفًا فذاقـوا ما أذاقـوا كالجبانِ
إذا دارت رحى البلوى عليهم فكانوا لُهْوَةً فوق الدِّهانِ
فطفقـوا يهربون كمثل جبنٍ فأُخـذوا ثم قُتلوا مثل ضانِ
إذا ما شاهـدوا قتـلَى كقُنَنٍ فرفـعوا طاعـةً عَلَـمَ الأمانِ
سـراةُ الحي جاءوا نادمينا فرحِم المصطـفى بحـرُ الحنانِ
وأما الجاهـلون فما أطـاعوا فأعدمَـهم فؤوسُ الاحتفانِ
سُقـوا كأس المنـايا ثم سيقوا إلى نارٍ تلـوِّحُ وجـهَ جـانِ
فهـذا أجرُ جهـل الجاهلينا من الرحمـن عند الاسـتنانِ
وما كان الرحيـم مُـذِلَّ قومٍ ولكـن بعد ظلـم وافتـنانِ
وهل حُـدِّثتَ مِن أنبـاء أممٍ رأوا قبـحًا بأفعـالٍ حِسانِ
وكل النـور في القـرآن لكنْ يمـيل الهـالكون إلى الدخانِ
بـه نلنـا تُراثَ الـكاملـينا به سِرْنا إلى أقصـى المعاني
فقُـمْ واطلُبْ معـارفه بجهدٍ وخَفْ شرَّ العواقب والهوانِ
أتخـطُب عـزّةَ الدنيا الدنيّةْ أتطلب عيشها والعيش فانِ
أترضى يا أخي بالخان حمقًا وتنسى وقت تبـديل المكانِ
على بستان هذا الدهر فأسٌ فكم شجـر يجاح من الإهانِ
وكم عنـقٍ تكسّـرها المنايا وكم كفٍّ وكم حسنِ البنانِ
ترى في سـاعةٍ سُـرَرًا لرجُلٍ وفي الأخـرى تراه على الإرانِ
وإني ناصـح خِـلٌّ أمـينٌ ويدري نـورَ علمي من يراني
يُكـرَّمُ جاهـلٌ قبـل ابتلاءٍ وقـدرُ الحَـبْر بعد الامتحانِ

وكفّــرني عــدوّ الحــق حمقًا فقلتُ اخْسَأْ، يراني من هداني
صوارمــه عــليّ مســلّلاتٌ وإني نحــو وجــه الحِبِّ رانِ
وإني قــد وصلتُ رياض حِبّي ويطلبني خصيــمي في المَحاني
هوَيتُ الحِبَّ حتى صار روحي وأَرْنــاني جِــناني في جَــناني
بوجه الحِبّ لستُ حريصَ مُلكٍ كفاني ما أرى نفسي كــفاني
عمود الخشْب لا أبغي لسقفي وحِبّي صــار لي مثل الــبُوانِ
ورثنا المجــد من ذي المجد حقًّا وصُبِّــغْنا بمحــبوب مُقــانِ
دخــلتُ النار حتى صرت نارًا ونخــلي فاقَ أفــكارَ الأفاني
خمــوري منــتقاة غــيرُ كَدَرٍ مُشَعْــشَعةٌ بمــاءِ الاقــترانِ
ولستُ مــواريًا عن عين ربي وإن الله خــلّاقــي يــراني
يُدَهْــدِئُ رأسَ كــذّابٍ غيورٌ ويُهلــكه كصــيدٍ مُستــهانِ
وإنــا النــاظرون إلى قدير قــريب قــادر حِبّ مُــدانِ
وإنا الشــاربون كــؤوس جدٍّ وإنا الكاسرون فؤوس خــانِ
وإنا الواصــلون قصــور مجدٍ وإنا الفــاصلون مــن الأداني
وأبــدَرَنا من الرحمــن بــدرٌ فنحــن المبــدَرون ولا نُماني
ونحن الفــائزون كمــالَ فوزٍ ونحــن المنعَــمون ولا نعــاني
وبارزْنــا العــدا متسلحــينا ولسنا قاعــدين كمــثل وانِ
وما جئنا الورى في غير وقت وذو حجر يرى وقت الرَّثــانِ
كخُذْروفٍ ندحرجُ رأسَ عجزٍ وتُبْــنا من ملاعبِ صولجانِ
عريفٌ فرسُ نفسي عند حرب ويدري السرّ مِن شدّ البِطانِ

مِكَــرٌّ ينــزلنّ كمــثل برق ولا تمــضي علــيه دقيــقتانِ
وإنا سوف نُوجَــرُ مِن مليكٍ ونُعطَى منه أجــرَ الامتــشانِ
وكأسٍ قــد شربنا في وِهــادٍ وأخرى نشــرَبنْ فوق القِنانِ
وهــذا كله مِن فضــل ربي ملاذي عاصــمي ممن جفاني
أرى أشجــار رحمتــه عظامًا مفــرِّحةً كــزرع الزعــفرانِ
وقومي كفّــروني مِن عــناد وإلحــادٍ وتحــريف البــيانِ
فيا لَعّانِ لا تهــلَكْ عَجولاً ولا تهجُــرْ فترجِــعْ كالمُهانِ
ووشكُ البَــين صعبٌ عند حُرٍّ وإن الحــر كالحــاني يقــاني
ولا تعجَبْ لقــولي وادّعــائي وقد عُلّمتُ مِن أخفى المعــاني
وللــرحمن في كلِــمٍ رمــوزٌ وكم قولٍ أسرَّ كمــثل كانِ
وكم كلِــمٍ مهفــهفةٍ دُقاقٍ هضيمِ الكَشح كالغِيد الحِسانِ
فيدري الضامراتِ ذوو الضمورِ ولا يدري سفــيهٌ كالسِّــمانِ
فإن تبــغي الدقــائقَ مثل إبرٍ فَلِــجْ في سَمِّها ودَعِ الأمــاني
وإن تستطــلِعنْ أنباءَ مــوتي فمُتْ كالمحــرَقين وكُنْ كفانِ
وبذلُ الجــهد قــانون قــديم مَنى للطــالبين قضــاء مــاني
وإني مسلــم والسِّلْــمُ ديــني فلا تُكفِرْ وخَــفْ ربّ الزمانِ
وإن أزمعتَ تكفــيري وعذلي فقُلْ ما شئت من شوق الجنانِ
ولا نخــشى سهام اللاعنــينا ولا نغــتاظ من تكفــير خانِ
جنــحنا كاهــلاً منّا ذَلولاً لأثقــال المطــاعن واللِّــعانِ
فــإن شاء المهيــمن ذو جلال يــبرّئ رحمــةً ممــا تــراني

وفي فـــمّي لســـانٌ غـــير أني   أُحبّ جـــوابَ ربٍّ مستـــعانِ
وآخـــر كلمـــنا حمدٌ وشكرٌ   لرب محســـن ذي الامتـــنانِ

ومن اعتراضات الواشي الضال، الذي ينوم بنعاس الضلال، اعتراضٌ بنى عليه عقيدته الباطلة في كتابه "التوزين". وتفصيله أنه رأى في القرآن الكريم آية: ﴿**يومَ يقومُ الروحُ والملائكةُ**﴾*، فتلقَّفَ لفظَ الروح كالشحيح، وأراد أن يستنبط منه نـــزول المسيح، بل أن يثبت ألوهيته كالوقيح، فكتَبه مستدلا كالمبطلين الفرحين.

أما الجواب فاعلم أن هذه الآية لا تفيده أصلاً ولا يثبت منها شيء إلا حمقه وجهله وكونه من السفهاء المستعجلين. ولا يخفى على الفضلاء الأعلام أن تأويل الروح بعيسى في هذا المقام دجلٌ وافتراء، بل جاء في كتب التفسير أنه جبرائيل عليه السلام، أو ملَكٌ آخر على اختلاف الروايات كما لا يخفى على الناظرين. ثم منطوق الآية يبدي بالتصريح ويحكم بالتنقيح أن هذه الواقعة متعلقة بالقيامة ولها كالعلامة، فإن الله تعالى ذكر هذه القصة في ذكر قصة الجنة ونعمائها العامة، ثم صرح بتصريح آخر وقال: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾، ولفظ ﴿اليوم الحق﴾ في القرآن بمعنى القيامة، ويعلمه كلُّ خبير أمين. فانظر كيف بيّن أنها واقعة من وقائع يوم الدين، ثم انظرْ كيف يفترون الذين في قلوبهم مرض ولا يخافون الله وما كانوا متقين.

فالحاصل أن الآية لا تؤيد زعم هذا الواشي بل تمزّقه، وبها يقع القول عليه وتجعله الآية من الكاذبين. فإنه يقول إن عيسى إله وابن إله، ويقول إن الروح هو الله وعينه، والآية تبدي أن هذا مَيْنُه،

* *النبأ: ٣٩*

وتبدي أن الروح الذي ذُكر ههنا هو عبد عاجز تحت حكم الله وقدره، وما كان له خِيَرَةٌ في أمره، وإن هو إلا من الطائعين، وما كان له أن يشفع مِن غير إذن الله، لأن الله ﷻ قال في هذه الآية: ﴿يَومَ يقُومُ الرُّوحُ والملائكةُ صَفًّا لا يتكلّمُون إلا مَن أَذِنَ له الرحمٰنُ وقالَ صَوابًا﴾✪، وأُشير في آية: ﴿عَسَى أنْ يَبْعَثَكَ رَبُّك مَقَامًا مَحمُودًا﴾،⊙ إلى أنه تعالى لا يعطي هذا المقام المحمود إلا نبيَّه وصفيَّه محمدًا المصطفى خير الرسل وخاتم النبيين. وأُلقِيَ في روعي أن المراد من لفظ الروح في آية ﴿يَومَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ جماعةُ الرسل والنبيين والمحدَّثين أجمعين الذين يُلقَى الروح عليهم ويُجعَلون مكلَّمين.

وأما ذِكرهم بلفظ الروح لا بلفظ الأرواح، فاعلم أنه قد يُذكَر الواحد في القرآن ويراد منه الجمع وبالعكس، سنّةٌ قد جرتْ في كتاب مبين. وذكرهم الله بلفظ الروح الذي يدل على الانقطاع من الجسم ليشير إلى أنهم في عيشتهم الدنيوية كانوا قد فنوا بكل قواهم في مرضاة الله، وخرجوا من أنفسهم كما يخرج الأرواح من الأبدان، وما بقي لهم النفس وأهواؤها، وكانوا لا ينطقون من الهوى بل بوحيٍ يوحى، فكأنهم صاروا روح القدس فقط لا نفسَ معه ولا أعراضَها.

ثم اعلم أن الأنبياء كنفس واحدة، لا يقال إنهم أرواح بل يقال إنهم روح، وذلك لشدة اتحادهم الروحانية وتناسُب جوهرهم

✪ *النبأ: ٣٩* ⊙ *الإسراء: ٨٠*

الإيمانية، وبما أنهم فنوا من أنفسهم وحركاتهم وسكناتهم وأهوائهم وجذباتهم، وما بقي فيهم إلا روح القدس، ووصلوا الله متبتّلين منقطعين، فأراد الله أن يبين في هذه الآية مقامَ تجرُّدِهم ومراتبَ تقدُّسهم وتطهُّرهم من أدناس الجسم والنفس، فسماهم روحًا إظهارًا لجلالة شأنهم وطهارة جنانهم، وأنهم سيُلقّبون بهذا اللقب في يوم القيامة ليُرِيَ اللهُ خَلْقَه مقام انقطاعهم، وليميز بين الخبيثين والطيبين. ولَعَمْرُ اللهِ إن هذا هو الحق، فتدبَّروا في كتاب الله ولا تنكروا مستعجلين.

وأما عيسى عليه السلام فأنت تعلم أن القرآن لا يسمّيه إلهًا ولا ابن إله، بل يبرّئه مما قيل، ويردّ الأقاويل إفراطًا كانت أو تفريطًا ويقيم عليه الدليل، ويبيّن أنه عبد ومن المقرّبين. وقال في مقام: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ..... وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾☆، واشترط قولَ الظالمين بلفظ ﴿مِن دونه﴾ ليُخرِج به قومًا أصبى الحبُّ قلوبهم وهيّج كروبهم حتى غلبت عليهم المَحْوِيّةُ والسُّكْر وجنونُ العاشقين، فخرجتْ من أفواههم كلماتٌ في مقام الفناء النظري والجذبات❖ السماوي، وورد عليهم وارد فكانوا من الواهين؛ فقال بعضهم: ما في جُبّتي إلا الله، وقال بعضهم: إن يدي هذه يد الله، وقال بعضهم:

☆ *الأنبياء:٢٧-٣٠*

❖ *سهو، والصحيح: "الجذب"، كما تدل عليه الترجمة. (الناشر)*

أنا وجه الله الذي وجّهتم إليه، وأنا جنبُ الله الذي فرّطتم فيه، وقال بعضهم: أنا أقول وأنا أسمع، فهل في الدار غيري، وقال بعضهم: أنا الحق؛ فهؤلاء كلهم معفوون، فإنهم نطقوا من غلبة كمال المحوية والانكسار، لا من الرعونة والاستكبار، وحفّتْ بهم سُكْرُ صهباء العشق وجذبات الحب المختار، فخرجت هذه الأصوات من خوخة الفناء لا من غرفة الخيلاء، وما نقلوا الأقدام إلى دون الله بل فنوا في حضرة الكبرياء، فلا شك أنهم غير ملومين. ولا يجوز اتّباع كلماتهم وحرص مضاهاتهم، بل هي كلمٌ يجب أن تُطوَى لا أن تُروى، ولا يؤاخذ الله إلا الذين كانوا من المتعمدين المجترئين.

وعجبتُ للنصارى.. ولا عَجَبَ من المسرفين، أنهم يقرّون بأن عيسى كان عبد الله وابن آدم، وكان يقول إني رسول الله وعبده، وحثَّ الناسَ على التوحيد والاجتناب من الشرك، وانكسر وتواضع وقال لا تقولوا لي صالحا، ثم يجعلونه شريك البارئ ويحسبونه رب العالمين، ويقولون ما يقولون ولا يخافون يوم الدين. ويظنون أن المسيح صُلب ولُعن لأجل معاصيهم وأُخذ لإنجائهم وعُذّب لتخليصهم، وأن الخَلْق أحفظَ الأبَ بذنوبهم، وكان الأب فظًّا غليظ القلب سريع الغضب، بعيدا عن الحلم والكرم، مغتاظا كالحرق المضطرم، فأراد أن يُدخلهم في النار، فقام الابن ترحمًا على الفُجّار، وكان حليما رحيما كالأبرار، فمنَع الأبَ من قهره وزيادته، فما امتنع وما رجع من إرادته، فقال الابن يا أَبَتِ إن كنتَ أزمعتَ

تعذيب الناس وإهلاكهم بالفأس، ولا تمتنع ولا تغفر، ولا ترحم ولا تزدجر، فها أنا أحمل أوزارهم وأقبَل ما أَبارَهم، فاغفِرْ لهم وافعَلْ بي ما تريد، إن كان قليلا أو يزيد. فرضِي الأب على أن يصلب ابنه لأجل خطايا الناس، فنجّى المذنبين وأخذ المعصومَ وعذّبه بأنواع البأس كالمذنبين.

هذا ما قالوا، ولكن العجب من الأب الذي كان نشوانًا أو في السُّبات أنه نسِي عند صليب ابنه ما كتب في التوارة وقال لا أُهْلِكُ إلا الذي عصاني، ولا آخذ أحدًا مكانَ أحد من العصاة، فنكَث العهد وأخلف الوعد، وترك العاصين وأخذ أحدًا من المعصومين. لعله ذهَل قولَه السابق مِن كبر السن وأرذل العمر وكان من المعمّرين!

والعجب من الابن أنه كان يعلم أن معشر الجن سَبَقَ الإنسَ في الخطأ ولا ينتهجون محجّة الاهتداء، بل تجاوزوا الحد في شباءة◆ الاعتداء، ثم تغافلَ من أمر سيآتهم، وما توجّهَ إلى مواساتهم، وما شاء أن ينتفع الجن من كَفّارته، ويكون لهم حياةٌ من إبارته، ونجاةٌ من نار أبدية التي أُعدّتْ لهم، فما نفعهم إبارته ولا كفّارته، وكانوا يؤمنون بالمسيح كما شهد عليه الإنجيل بالبيان الصريح، فكأن الابن ما دعا تلك المذنبين إلى هذا القِرى وتقاعسَ كبخيل وضنين. ومن المحتمل أن يكون للأب ابن آخر، صُلِبَ لتلك المعشر، بل من الواجبات أن

◆ *سهو، والصحيح: "شباة"، وهي إبرة العقرب وحدُّ كل شيء. (الناشر)*

يكون كذلك لتنجية العُصاة، فإن ابنًا إذا صُلِبَ لنوع الإنسان مع قلة العصيان، فكم مِن حريّ أن يُصلَب ابن آخر لنوعٍ جِنِّيٍّ الذي ذنبهم أكبر وأكثر، وإلا فيلزم الترجيح بلا مُرجِّح باليقين، ويثبت بخل الأب أو بخل البنين. ولا شك أن فِكْرَ مغفرة قوم عادين والتغافلَ من قوم آخرين، عُدولٌ صريح وظلم مبين، بل يثبت مِن هذا جهلُ الأب المنّان. أمَا كان يعلم أن المذنبين قومانِ، ولا يكفي لهم صليب بل اشتدت الحاجة إلى أن يكون ابنان وصليبان؟

لا يقال إن الابن كان واحدا فرضِي ليُصلَب لنوع الإنسان، وما كان ابن آخر لكفّارةِ أبناء الجانّ. لأنا نقول في جوابه إن الأب كان قادرا على أن يلد ابنا آخر، وما كان كالعاجز الحيران، فلا ريب أنه ترك الجنَّ عمدًا أو من النسيان، أو ما صلَب ابنًا ثانيًا مخافةَ بَتْرِه كالجبان. ومن المحتمل أن يكون الابن الآخر أحبَّ من الابن الأول إلى الأب التَّوْقان، وهذا ليس بعجيب عند ذوي الأذهان، فإنه قد يتفق أن الأصغر من الأبناء يكون أحبّ إلى الآباء. ففكِّرْ في هذه الآراء، وفي إله هو ذو بنات وبنين. وسبحان ربنا عما يخرج من أفواه الظالمين.

ثم بعد ذلك نرى أن آدم كان أول أبناء الله في نوع الإنسان، وقد أقرّتْ أناجيل النصارى بهذا البيان، ومن المعلوم أن الفضل للمتقدم لا للذي جاء بعده كالمضاهئين. وقد خلق الله آدم بيده

وعلى صورته، ونفخ فيه روحه بكمال محبته، وأما المسيح فما كان لَبِنةَ أوّلِ الأساس، بل جاء في أخريات الناس، وكان من المتأخرين.

ثم العجب أن إله النصارى ولَد الابنَ ولم يلد البناتِ، كأنه عاف الأَخْتانَ أو كرِه أن يصاهر إلا الصِّفْتات، أوْ لم يجد كمثله الشرفاء السراة. فهل من أعجوبة في السكارى مثل أطروفة النصارى، أم هل رأيت مثلهم من المغلّسين؟ والأصل الموجب الجالب إلى هذه العقيدة الفاسدة والأمتعة الكاسدة، انهماكُهم في الدنيا مع هجوم أنواع العصيان وشوق نعماء الجِنان مع رِجس الجَنان. وأنت تعلم أن الشحّ يُعمِي عينَ رؤية الصواب، فلا يفتّش الشحيحُ العَجولُ مِن الوِهاد والحِداب، بل يسعى مستعجلا إلى ملامح السراب، بمجرد استماع قول الكذّاب، وإذا بلغها فلا يجد إلا وادي التباب، فتضطرم نار العطش وتثِب عليه كالذياب، ويحترق القلب كاحتراق الجلباب، فيسقط على الأرض من غلبة الاضطراب، ويطير روحه كالطير ويلحق بالميّتين.

فمثلُ قوم اتّكأُوا على الكَفّارة من كمال الجهل والغرارة، كمثل حمقى الذين كانوا من قوم متنصرين. طحطَحَ بهم قلّةُ المال وكثرة العيال، حتى كان الفقر حَصادَهم والتُرْب مِهادَهم، وطعامهم بعض الأفاني وسَحْناؤهم كالشيخ الفاني، وكانوا من شدة بؤسهم مضطرين. فقيّض القدر لنصَبِهم ووَصَبِهم أن جاءهم شيخ شَخْتُ الخِلْقة، دقيق الشرَكة، حقير السَّحْنة، وكان توجد فيه آثار الخصاصة

والافتقار، ويبيّن حالَه الحِذاءُ المرقَّعُ وبِلَى الأطمارِ. فدخل وعليه بُرْدانِ رثّانِ، وفي يده سُبحة كسبحة الرُهبان، وكان سائلا معترًّا، وشَعِثًا مغبرًّا، قد لقِي متربةً وضرًّا، حتى انثنى محقوقِفًا مصفرًّا. وكان لبسُه كثيرَ الانخراق باديَ الإخريراق، وكانت هيئته تشهد على أنه ما أصاب هِلّةً ولا بِلّةً، وإن هو إلا معروق العظم ومن الطاحين. فوَلَجَ حَلْقتَهم بسوء حاله وأفانينِ مقاله، ليخدَعهم بزخرفةِ محاله، فسلّم ثم كلّم، وقال هل أدلّكم إلى مكسب مال تنجيكم من إقلال، فتكونون ذوي أملاك ورياض، وترفَلون في ذيلٍ فضفاض، وتُفعِمون صناديقكم كما يفعم الماء في حياض، فتصبحون متنعمين؟ فرغبوا مِن حمقهم وشدة شحّهم في الأموال، وقالوا مرحبًا لك تعال تعال، ودُلَّنا إلى هذا المنوال، وإنا نفعل كل ما تأمر، ونحضر أينما تحضر، وستجدنا من المتمثلين الشاكرين. ففرِح الخُدَعةُ في قلبه على قيد الصيد وإصابة الكيد، وعرَف أنهم سقطوا في شبكته واغترّوا بخديعته، وجاءوا تحت فخّه بصفيره وزفرته، فكلّمهم بأحاديث ملفّقة، وأكاذيب مزخرَفة، وقال ما لي يأخذني رقّةٌ عليكم، ويهوي قلبي إليكم؟ لعل الله قدّر لكم حظًّا في منهلي، ونُزُلاً في منزلي، وأراد أن يجعلكم من المتمولين. وقد كنت أعلم أنكم مِن أكرمِ جرثومةٍ وأطهرِ أرومةٍ، ومِن أبناء بُناة المجد وأرباب الجد، والآن أراكم بصفر اليد، فأُلقِيَ في قلبي أن أرحمكم وأشفق عليكم، وأقوم لمواساتكم ودفع آفاتكم، وكذلك وقعتْ شِيمتي، واستمرّت عادتي.

وخيرُ الناس من ينفع الناس، ويعين ذوي الفاقات والمساكين. وستَعجُمون عُودَ دعواي وحلاوةَ جَناي، وإني لمن الصادقين. فكلوا هنيئًا مريئًا هذه المائدة الواردة، واستقبِلوا هذه الدولة الحاردة، وخذوا تلك الغنيمة الباردة شاكرين. فاذهبوا سارعين مبادرين إلى بيوتكم، لتُعطَوا أجرَ قنوتكم، وأْتوني بما كان عندكم من أثارةِ مال بقي من زوال، مِن نوع حِليةٍ من ذهب كان أو فضّة، أو حُلي جيرانكم وخلانكم، ولا تتركوا شيئا منها، وارجعوا مستعجلين. وإني أقرأ عليها كلماتٍ كرُقْيةٍ، وأعكف على هذا العمل إلى بضع ساعة، فتهيج في الحلي ثورةُ مَزِيَّة، وكلُّ حِلية تربو وتنمو، والزيادات فيها تبدو، حتى تكون الحلي مئةَ أمثالها، وتنـــزل عليها بركات بكمالها وتُعجِب الناظرين. ولا تعجبوا لهذا الحديث، فإن فيه سر كسرِّ التثليث، فلا تسألوني عن دلائل كفلسفيين. العمل عجيب، والوقت قريب، وتكونون من بعد قوما متنعّمين.

فاغترّوا بقول الكاذب المكّار، وحسبوا هذا العمل كالتثليث من الأسرار، بما لكَزهم حمارُ الجهل الجذّارُ، وبتَرهم سيفُ الشحِّ البتّارُ. فألقتْ في الضلالة الثانية الضلالاتُ الأولى، وتكونتْ مِن ظلمة ظلمة أخرى، فمالوا إليه كما كانوا مالوا إلى عقائد المسيحيين. قالوا ما نشقّ عصا أمرك، وما نلغي تلاوة شكرك، وقد أتيتَنا من الغيب كملائكة منجِّين. فبادَروا إلى بيوتهم في فكر قُوْتهم وتنضير سَبْروهم،

وما شكّوا وما تقاعسوا، بل كلٌّ منهم ذهب ليأتي به الذهب•، وزاب ليزداب، وكانوا في سكرة حرصهم كالمجانين. فلما دخلوا ربوعهم مَراحًا، قالوا لأهلها أنعِموا صباحًا، ثم قصّوا عليهم القصّة، وهنّأوهم متبسمين. فصدّقوا قولهم الذين كانوا كمثلهم في الجهالة ونظيرهم في الضلالة، وكانوا يتغنون فرحين. فنــــزعوا الحلي من أعضاء نسائهم وآذان إمائهم وآناف بناتهم وأيدي أخواتهم وأرجل أمهاتهم، وأشركوا في تلك التجارة نساءَ أصدقائهم وأزواج أحبّائهم، بل نسوانَ جيرانهم وعذارى أقرانهم، وغادروهن كأشجار خالية من ثمار. وغادر كل أحد بيته أنقَى من الراحة، طمعًا في كثرة المال وزيادة الراحة. ثم رجعوا مستبشرين، ونبذوا الحلي أمام يديه فرحين. فلما رأى المكّار امتلاءَ كيسه وانجلاء بؤسه، ورأى حمقهم وجهلهم، فرِح فرحا شديدا، ووجد نفسه غنيًّا صنديدًا، قال أعلم أنكم ذوو حظ عظيم ومن الفائزين، وستجتنون جَنَى عملكم وتعلُون مطا جملِكم، وتذكروني إلى أبد الآبدين.

ثم قال يا معشر الأخيار وأكباد هذه الديار، اعلموا أن هذا العمل من الأسرار، وقد وجب إخفاؤها من الأغيار، ومن أشراط هذه الرُّقْية قراءتُها في الزاوية على شاطئ الوادي عند نهر جار في البادية، وكذلك عُلِّمت من المعلِّمين، فهل تأذنونّي أن أفعل كذا، وأرجع إليكم بذهب كأمثال الرُّبَى، لترجعوا إلى شركائكم بمال ما

• سهو، والصحيح: *"ليأتي بالذهب" أو "ليأتيه بالذهب". (الناشر)*

رأته عين الناظرين؟ وسترون قناطيرًا مقنطرة من الذهب الخالص والمال المليح، ولا ترون نظيره في التنجية إلا كفّارة المسيح، ويكفي لدينكم الكفّارةُ ولدنياكم هذه الإمارة، فنجوتم في الدارينِ من تحريك اليدين ومِن جهد الجاهدين. قالوا الأمر إليك والقلب لديك، وإنك اليوم لدينا مكين أمين. قال طوبى لكم ستُفتَح عليكم أبواب المسرّة وتعطى لكم مفاتيح الدولة، بل أعلّمكم رُقْيتي، لكيلا تضطربون◆ عند غيبتي، ولكي تكون لكم دولة عظمى ومُلكٌ لا يبلى. قالوا لا نستطيع إحصاء شكرك وإنك أكبر المحسنين. قال جَيْرَ، ما علّمتُ أحدًا هذا العمل من قبلكم، ولا أعلِّم بعدكم قومًا آخرين. فسألوا عنه سرَّ هذا التخصيص وحكمةَ تحديد هذا التبصيص، فأقسمَ بالأقنوم الذي يجير الجاني أنه ضاهَى في هذه العادة بالأقنوم الثاني، وجعلهم كالمسيح من المتفردين. ثم شمّر ذيله ليطير كالعقاب، فغدا بإزعام الذهاب ولا اغتداءَ الغراب، وقال لهم عند الفرار: يا سادات الأمصار وصناديد الديار، سآتيكم إلى نصف النهار، فانتظِروني قليلا من الانتظار، ولا تأخذكم◈ شيء من الاضطرار، فإن الرُقْية طويلة والبُغْية جليلة، والطبيعة عليلة، والمسافة بعيدة، والبرودة شديدة، وما كنت أن أشقّ على نفسي في هذا الضعف والنحافة، وما أجد في بدني قوّةَ قطع المسافة، وإني نبذت

◆ *سهو، والصحيح "تضطربوا" . (الناشر)*

◈ *سهو، والصحيح: "يأخذكم" . (الناشر)*

عُلَق الدنيا كلها، وتركت كُثْرَها وقُلَّها، وما يسرّني إلا ذكر المسيح رب العالمين - لعنة الله على الكاذبين - لكني كلّفت نفسي لكم بما رأيتكم من قبائل الشرفاء ووجدتكم كأطلال الأمراء وفي الضراء بعد النعماء، وبما تحققت المصافاة وانعقدت المودات، فهاجت رحمتي وماجت شفقتي، وجذبني بَخْتُكم المحمود ونجمكم المسعود، فأردت أن أجعلكم كالسلاطين. وسأرجع إليكم مع الجَنى الملتقط، فانتظِروا بالقلب المغتبط، سترون بيضاء وصفراء كحليلة جميلة زهراء، وأُوافيكم كالمبشّرين المستبشرين. فذهب وتركهم مغبونين. فما فهموا أنه غَرَّ وطلب المفرّ، وفرحوا بتصور حصول المراد، ولبثوا يرقبونه رِقبةَ أهلّة الأعياد، وينتظرونه انتظارَ أهل الوداد متنافسين، إلى أن تلبست الشمس كالمتندمين نقابَها، وسوّدت كالمحزونين ثيابها، وألغتْ كالمخدوعين حسابها، واختفتْ بوجه مصفرّ كالمنهوبين.

فلما طال أمد الانتظار، وتجاوز الوقت من موعد المكّار، وأضاعوا في رِقبةٍ الزمانَ، وبانَ أن الرجل قد مانَ، نهضوا كالمجانين، وسعوا إلى كل طرف مفتّشين، وعدَوا إلى اليمين واليسار مرتعدين، بتصوُّر الحلي الكبار وفِكْرِ هتك الأستار. فلما استيأَسوا منه كالثكلى سقطوا كالموتى، وأكبّوا على وجوههم باكين، وعرفوا أنهم قد خُدعوا بل جُدعوا ومن القوم قُدعوا، فضربوا على خدودهم قائلين: يا ويلنا إنا كنا منهوبين مخدوعين. ثم ألقوا على رؤوسهم

غبار الصحراء، وصعدت صرخهم إلى السماء، وجمعوا الناس حولهم من شدة الجزع والفزع والبكاء. فجاءهم القوم مُهرَعين، فسألوا عن بلاءٍ نــزل وجرحٍ ابتزل، وعن مصيبة مذيبة للقلوب وداهيةٍ مهيّجة للكروب، واستفسروا من تفاصيل المصيبة وكيفية القصة. فعافُوا أن يبيّنوا خوفًا من طعن الناس والخزي بين العوام والخواص، ومع ذلك كانوا صارخين. فقال القوم ما لكم لا ترقأ دمعتكم ولا تسكن زفرتكم، أظُلِمْتم من قوم عادين؟ لِم تسترون الحقيقة وتزيدون الكربة، ألا ترون إلى لوعةِ كرب المحبين؟ فصاحوا صيحة المغبون، واستحيوا مِن إظهار الكمد المكنون، ثم بيّنوا القصة وأبدوا الغصة، وما كادوا أن يبينوا، ولكن عجزوا عن إصرار المصرين. فلامَهم كلُّ أحد من العقلاء، ومطرت مِن كل جهة سهامُ العُذلاء، فنكّسوا رؤوسهم متندمين. وقال المعيّرون يا معشر الحمقاء وأئمة الجهلاء، ألستم علِمتم أنه جاءكم فقير بادي الخذلان، وعليه بُردانِ رثّانِ كالعُثان؟ فمن كان في أطمار كيف يهبكم رِياشَ أفخارٍ، وينجيكم من أسرِ أوطار؟ أما رأيتم عليه أثر الإفلاس، فكيف شُغفتم به.. أكنتم أنعاما أو من الناس؟ ثم كانت هذه الخرافات بعيدة من قانون القدرة وخارجة من السنن المستمرة، فكيف قبِلتموها وقائلَها إن كنتم عاقلين؟ وكيف نسيتم تجارب الحكماء، أكنتم أنعاما أو كنشوانِ الصهباء مخمورين؟ وكيف ظننتم أنه صدوق أمين مع أنه خالفَ الصادقين أجمعين؟ أما رأيتم أطماره؟ أما شاهدتم إزاره؟ أما

سمعتم من قبل قصصَ المكّارين؟ فلا تلوموا أحدًا ولوموا أنفسكم. إنكم قد أهلكتم نسوانكم وإخوانكم وخلانكم وجيرانكم، فليبكِ على فهمكم من كان من الباكين.

هذا مثل المسيحيين وكفّارهم وجهلهم وغرارهم، وما قلنا ذلك إلا نصاحةً لله لقوم جاهلين. ولكن المسيح والصالحين من أصحابه مبرَّؤون من ذلك المثل وخطابه، وما نتوجه إلا إلى الخائنين الذين سيرهم سيرة السرحان ولبوسهم لبوس الرهبان، وقد تبينَ انكفاؤهم وبَرْحُ ليلائهم، وتبين أنهم من الضالين المضلين. ومن وقاحتهم أنهم مع جهلهم يصولون على الإسلام، ويضلّون طوائف الأنام، ويشيعون أنواع الآثام، وكانوا قوما دجالين. فليندموا على بادرة الاعتقاد، وليخافوا خسراهم يوم المعاد، وما أنا إلا نذير من رب العالمين.